تربية الأمة بالأسوة الحسنة

(فاسس رسول الله المسجد وأسسوا معه .. وبناه رسول الله ﷺ وأصحابه ، وجعل ينقل الحجارة معهم بنفسه ويقول : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ...) .

محمد بن سعد عن الواقدى

بقيام مسجد المدينة أصبح لأمة الإسلام وجود مادى ملموس . والمسجد لم يكن مصلى فحسب ، بل كان ملتقى المسلمين ومجمعهم . إنه بيت أسرتهم ، هنا كانوا يصلون ، والصلاة طريق المخلوق إلى الخالق وهنا يتلاقى المسلم والمسلم ليشعرا بالأنس والقوة والمحبة ، لأن المسجد هو بيت الله ، وهو كذلك بيت كل مسلم . إلى هنا كان يفزع المسلمون إذا حزبهم أمر . والمسجد عاصمهم ، قل عاصمتهم ، لأن فيه مقام رسول الله ﷺ ، وبالفعل بمجرد قيام المسجد تحولت المدينة إلى « عاصمة » . . الإسلام لا بالمعنى السياسى فحسب ، بل بالمعنى الدينى الإسلامى ، فهنا تؤدى الصلاة . والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى فهى عاصمة من الضلال . .

لهذا لم يقدم الرسول على إنشاء المسجد شيئاً . منذ اليوم الأول لمقامه فى دار أبى أيوب بدأ التفكير فى إقامة المسجد وعمارته ، ومن الأسبوع الأول تم التفاهم بين الرسول وأمته على أرض المسجد وعمارته ، ثم كان الشروع فى العمل الذى استغرق ـ كما جاء فى ابن سعد عن الواقدى ـ من ربيع الأول سنة ١ للهجرة إلى صفر سنة ٢ للهجرة (سبتمبر ٦٢٢ ـ يوليو ٦٢٣ م) .

وهناك حقيقة أخرى تتصل بمسجد الرسول لها أهميتها بالنسبة لمبحثنا هذا : هى أن الرسول اشترك فى بنائه بنفسه ، عمل بيده فى البناء . قال ابن إسحاق فعمل فيه رسول ﷺ ليرغب المسلمين فى العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه فقال قائل من المسلمين :

لئن قعدنا والنبى يعمل فذاك منا العمل المضلل

وهذا البيت من الشعر يضع يدنا على العبرة من اشتراك الرسول فى العمل فى بناء مسجد الجماعة بيده ، إنها الأسوة الحسنة ، وهذا رجل من المسلمين يقول إننا لو قعدنا عن العمل ورسول الله يعمل فذلك منا خطأ وضلال . .

وإذن فهى الأسوة الحسنة التى أراد الرسول أن تكون سبيله لتربية جماعته . كان إذا أراد من المسلمين أن يعملوا عملاً بدأ هو العمل بنفسه دون أن يصدر أمراً . فإذا رآه الناس تبعوه فيه طواعية واختياراً ومحبة . يجدون فى ذلك شرفاً وقربة . .

ولقد أكد الله سبحانه وتعالى معنى الأسوة الحسنة وجعلها قاعدة دينية أخلاقية قال فى سورة الأحزاب : ﴿ **لَّقَد كَانَ لَكُم فى رَسُول الله أُسوَةٌ حَسَنَةٌ لّمن كَانَ يَرجو الله وَاليَومَ الآخرَ وَذَكَرَ الله كَثيراً** ﴾ . (الأحزاب : الآية ٢١) .

وسورة التوبة أو براءة هى كما قلنا سورة التقنين والتشريع النهائى للكثير من الأصول التى ينبغى أن يكون عليه كل مسلم وكل جماعة مسلمة . . .

وإذن فالأسوة الحسنة واجب وفرض على كل من ولى أمراً من أمور المسلمين بدلاً من إصدار الأوامر ، ليبدأ من ولاه الله أمر المسلمين فى شىء بنفسه أخلاقياً وعملياً ، لأن الأسوة الحسنة هى أمثل أساليب التربية . .

وحتى فى المغازى لم يكن رسول الله حتى نزلت سورة براءة يصدر أمراً للناس بالخروج ، بل كان يستعد ويتأهب . حتى أبو بكر كان أحياناً لا يعرف أن الرسول خارج إلى غزاة . كان يعلم عن طريق ابنته أم المؤمنين عائشة ، فيسرع ويعد نفسه ، ويخرج الرسول ومن حضر إلى خارج المدينة ، ويعسكر فى موضع يسمى الجرف شمال المدينة وينتشر الخبر ويتلاحق الناس بالرسول ، وهو ينتظرهم يوماً أو بعض يوم ثم ينهض لغزاته بمن حضر . .

لقد قال رسول الله ﷺ : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » . وهذا حق والعبرة من هذا الحديث هى بقيته التى لم يقلها الرسول ولكن نقولها نحن : وأدب محمد أمته فأحسن تأديبها .

لأن الأسوة الحسنة هى تأديب عن طريق إيقاظ الضمير وإذا استيقظ ضمير الجماعة أصبح هو قانونها وشرعتها ومنهاجها فى الحياة . والقرآن كله ، والإسلام كله إيقاظ للضمير والضمير الحى يفتح الطريق إلى الله وإلى الفضائل . .

وماقيمة كل تشريعات الدنيا وعقوبات القوانين مع الضمير الميت . والضمير لفظ حديث غير قرآنى يقابله فى القرآن : القلب والقلوب والصدر والصدور واقرأ معى قول الله تعالى فى سورة الأنفال : ﴿ **فَاتَّقُواْ اللهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ . (الأنفال الآيتان ١ ـ ٢) .

وتأمل قوله تعالى فى سورة الحج : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ** ﴾ . (الحج : الآية ٤٦) .

أما الذين ماتت ضمائرهم فلم يعودوا يحسنون شيئاً أو يعرفون فرقاً بين خير وشر ، بين فضيلة ورذيلة فحديث القرآن عنهم طويل .

ولكن اقرأ معي تلك الآيات من سورة الإسراء : ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً** ﴾ . (الإسراء : الآيتان ٤٥ و ٤٦) .

ورواية محمد بن سعد عن شيخه الواقدى فى شأن اشتراك الرسول بالعمل بيده فى المسجد أبلغ من عبارة ابن سعد برواية زياد بن عبد الله البكائى قال : وبناه رسول الله ﷺ وأصحابه وجعل ينقل الحجارة معهم بنفسه ويقول : « **اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة** » .. وتكمل هذا الخبر عبارة وردت عند ابن هشام : قال (ابن إسحاق) يروى خبر دخول عمار بن ياسر على رسول الله أثناء بناء المسجد . قالت أم سلمة زوج النبى ﷺ : « فرأيت رسول الله ﷺ ينفض وفرته بيده (أى شعر رأسه) وكان رجلاً جعداً وهو يقول :

ويح ابن سمية . . فكأن رسول الله كان يعمل فى البناء حتى امتلأ شعر رأسه بالغبار فجعل ينفضه بيده . .

ترى كم تكلف بناء هذا المسجد الضخم ومساحته كما قلنا ٣٢٨٠ متراً ونيف ، لقد كان أساسه على عمق متر وثلاثة أرباع المتر من الحجر ثم رفع سوره باللبن وجعل جانبا بابه الرئيسى من الحجر وأنشىء فيه عريش بيت الصلاة من جذوع النخل وجعلت الصفة فى آخره هذا إلى غرف الرسول ﷺ .

كل ذلك تكلف عشرة دنانير هى ثمن الأرض ، استقرضه الرسول من صاحبه أبى بكر ودفعه ثمناً للأرض . .

والباقى : ثمن الحجر وتنجيره واللبن (بفتح اللام المشددة وكسر الباء) وعمله وجانبا الباب والعريش والصفة وغرف الرسول ؟ هذا كله بنته المحبة بناه الإيمان وتعاون الجماعة .

لقد تكلف بناء المسجد عشرة دنانير فى حساب المال .

ولكن تكاليفه فى حساب القلوب والإيمان ألوف بعد ألوف .

وهذا مانسميه ياأخى القارىء ببركة الإيمان وهى تعدل مال الأرض جميعاً وتزيد . .

ونحن ياأخى نملك الملايين بعد الملايين فلماذا نبنى بالملايين بعد الملايين ؟

لأن البركة معدومة ، والبركة تأتى من الإيمان . والإيمان هو كل شىء فى هذه الحياة . . ولو آمنت أمة الإسلام جيلا بعد جيل لما ذهبت عنها بركة الإيمان ولكانت اليوم أغنى الأمم وخير أمة أخرجت للناس حقاً . ولكانت الأرض كلها اليوم إيماناً وإسلاماً . .

ومـانقـول هذا مواعظ ولا أمـانى ، إنما هى حقيقة ، وانظروا إلى مافعل أجدادكم بالإيمان . لقد فتح المسلمون أيام الرسول وأيام الراشدين نصف الدنيا بدون مال وأين كانت الخزائن التى كان ينفق منها الرسول وأبو بكر وعمر ؟ إنها خزائن القلوب والصدور . . خزائن الإيمان .

وهذه كلها دروس وعظات نتعلمها من قيام أمة الإسلام أيام الرسول . إنها دروس ومواد داخلة فى دستور أمة الإسلام ، والدستور ليس مجرد النصوص التى تكتب إنما أهم مواد الدساتير والقوانين هى التى لا تسطر بالأقلام فى الطروس .

إنما هى التى تنقش فى الصدور بيد الإيمان . .

وفى عالمنا هذا أمة ظللنا نحسدها زماناً على رقيها وقوتها هى بريطانيا رفض أهلها أن يكتبوا دستورهم وفضلوا أن يظل الدستور منقوشاً فى الصدور . أرادوا أن يكون دستورهم هو ضميرهم . . وهذا أبلغ لأنه جعل الدستور الإنجليزى دستور القلوب وقانون الضمير وهذا الدستور وهو غير مكتوب أقوى من ألف دستور مكتوب اليوم فى دول لا يتقيد أصحاب الأمر فيها بأى قانون أو دستور مكتوب أو غير مكتوب .

وأول دولة فى عالمنا الراهن ، دستورها صفحة واحدة ، تناقش رجال التحرير الأمريكيون فيها وكتبه بيده رجل واحد مؤمن بوطنه وبالحرية ، رجل موهوب القلب والعقل هو توماس جيفرسون ، ولا نجد فى هذا الدستور الذى كتبه توماس جيفرسون ووافق عليه أحرار الولايات المتحدة فى ٤ يوليو ١٧٧٦ لا نجد فيه مادة ولا معنى ولا فكرة إلا وهى فى القرآن الكريم والحديث الشريف على أبلغ صورة وأبين منطق ، بل عندنا فى قرآننا مايفضلها ألف مرة ، ولكن قول الله سبحانه حق علينا : ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾ وإليك السطور الأولى من دستور الولايات المتحدة أوردها عليك وأنا واثق أنك سترى أن أبلغ منها وأصدق وأشمل ورد فى قرآنك الذى بين يديك . قرآنك الذى لا تكاد تقرأه وإذا قرأته فما أقل ماتعيه :

إن كل البشر قد خلقوا سواسية وإن خالقهم أولاهم حقوقاً معينة لامراء فيها ، وإن بين هذه الحقوق « الحياة » و « الحرية » والسعى إلى السعادة ، وإنه من أجل صون هذه الحقوق تنشأ الحكومات « بين البشر » مستمدة سلطاتها العادلة من قبول المحكومين . وفى نهاية إعلان الدستور تقرأ هذه الجملة البديعة « ولتكن هذه أمة من الناس وبالناس وللناس . . . فهل فى هذا بالنسبة لأمة الإسلام جديد ؟ .

إنه لولا أن يطول هذا المبحث ويتجاوز صبر القارىء لأتيت لك من آيات القرآن ودرر الحديث مايدلك على أن الله فضلنا بخير مافضل به أمة من الأمم فى مبادىء العدل والشورى والتقى ومكارم الأخلاق وكل مايصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، ولو كنا أهلاً للفضل لكنا أهلاً للسعادة التى نطلبها دون أن نجدها .

إلى جانب ذلك كله لدينا دستور كتبه رسول الله ﷺ أو أملى نصه بتعبير أدق ، بعد تشاور مع المسلمين ، دستور بين فيه طبيعة أمة الإسلام وحقيقة تكوينها والقواعد السياسية والاجتماعية والأخلاقية التى تقوم عليها وحدتها ويستقيم عليها أمرها . .

قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم .

ثم أتى بنص الكتاب كما سنأتى به فيما بعد بتفصيل شاف بإذن الله . .

وذكره - أى الدستور - أبو عبيد القاسم بن سلام بروايتين موجزتين بعض الشىء ، الأولى عن عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد عن ابن شهاب الزهرى . والثانية عن حجاج بن أبى جريج — وأبو عبيد (١٤٥ - ٢٢٤ هـ/ ٧٧١ - ٨٣٩م)يعتبر من أوثق رجال الحديث ، وهو من جيل المحدثين العظام الذين جددوا شباب دراسات الفقه والأصول من منتصف القرن الهجرى الثانى إلى منتصف الثالث ، وهو صنو أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ومحمد بن إدريس الشافعى ، وهو لا يورد شيئاً إلا عن ثقة وأسانيد متينة . وقد أورد معظم نص هذه الوثيقة . . ابن كثير فى تاريخه ، وهو يسمى عندهم جميعاً « الكتاب » أو الصحيفة . .

أما سبب كتابة هذا الكتاب أو هذه الصحيفة أو الدستور ، فهو أن رسول الله ﷺ عندما هاجر من مكة إلى المدينة هاجر هو ومن سبقه وصاحبه ولحق به

على بيعة شفوية غير مكتوبة ، وهذه البيعة أو العقد أو العهد اتفاق بين محمد ومن دعوه إلى الهجرة إلى بلدهم من رجال الأوس والخزرج ، وهى لا تضم تفاصيل كثيرة بل هى تنص على أن ينتقل الرسول إلى المدينة هو وأصحابه ليعيشوا مع من أسلم من أهل المدينة أحراراً يمارسون شعائر دينهم ويعملون على نشر الإسلام ، وفى مقابل ذلك يتعهد أولئك النفر من أهل المدينة بحماية محمد ودينه وأصحابه واتباع شريعة الإسلام . ويلتزمون بالطاعة لرسول الله فى كل مايتعلق بأحكام الإسلام . .

ولم يكد هذا العقد يتم ويشرع المسلمون فى الهجرة حتى أنزلت آية الإذن للمسلمين الذين أخرجوا من ديارهم (أى المهاجرين) فى القتال :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُواْ وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصرِهِم لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللهُ ، وَلَولَا دَفعُ اللهِ النَّاسَ بَعضَهُم بِبَعضٍ لَّهُدِّمَت صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ كَثِيراً ، وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُم فِى الأَرضِ أَقَامُواْ الصَّلَاةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالمَعرُوفِ وَنَهَواْ عَنِ المُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ . (الحج : الآيات ٣٩ ـ ٤١) .

وهذه الآيات كما ترى تأذن للمهاجرين الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم فى أن يقاتلوا ظالميهم ، ولكن الآية لم تقل شيئاً بشأن أهل المدينة أنفسهم فى حالة القتال ، ووعد الله بالنصر أتى للمهاجرين وحدهم دون غيرهم . ثم تبرر الآيات القتال فى سبيل الدّين وتقول : إنه لولا ذلك لهدمت الأديرة التى يتعبد فيها الصالحون وتخربت كنائس النصارى وبيع اليهود ومساجد المسلمين ، وهى المواضع التى يذكر فيها اسم الله كثيرا . . .

ثم تقول الآيات ، إنه عندما يمكن الله لعباده هؤلاء فى الأرض ، فإن عليهم أن يقيموا الصلوات : فى مساجدهم التى سيبنونها ويؤتوا الزكاة ويقيموا

الخير ويدعوا إليه وينصروه وينهوا عما ينكره الدين والخلق الكريم . .

والآن استقر محمد وأصحابه فى المدينة مع إخوانهم من أهل البلد الذين أسلموا وحملوا لقب الأنصار لأنهم نصروا دين الله تعالى . ومنهم مَعاً تكونت أمة الإسلام ، وأخذت آيات القرآن تتنزل ببقية الأحكام وقواعد الشرع ومكارم الأخلاق ، وكل هذه تنظيمات ينبغى أن تطبق فى أمة يقوم أمرها على ذلك الدين الجديد .

فلابد إذن من أن تنشأ الأمة بصورة واضحة ، ولابد أن يحدد تكوينها وشخصيتها وتبين حقوق أفرادها والتزاماتهم ونوع علاقاتهم بمن يسكنون معهم فى المدينة ممن لم يدخل فى الإسلام ، وممن تدين بدين آخر غير الإسلام وغالبيتهم يهود المدينة . ثم إن الله قد مكن للمؤمنين فى الأرض فكيف ينفذون ماأمرهم الله به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ .

ثم إن المغازى والسرايا بدأت فى أثناء ذلك ، ففى رمضان من السنة الأولى للهجرة أى بعد الهجرة بستة شهور ، وقبل تمام المسجد أرسل الرسول أولى سراياه ، وكانت بقيادة حمزة بن عبد المطلب ، وهى سرية سيف البحر أى شاطئه وهدفها استطلاع المساحة الواقعة بين المدينة وساحل البحر الأحمر حيث يمر طريق التجارة المكية ، وفى رمضان من نفس السنة قام عبيدة بن الحارث ـ وهو المهاجر الوحيد الذى كان أكبر من رسول الله سنا ـ بسرية رابغ لنفس الغرض . .

كذلك اتصلت هجرة الناس من مكة إلى المدينة ، ودخل فى الإسلام رجال من القبائل خارج المدينة ، وبهذا كله تغير الموقف ، وأصبحت بيعة العقبة الثانية ـ فى حاجة إلى إعادة نظر أو إعادة صياغة كما نقول . خاصة أن محمداً تجلى إلى جانب نبوته وهداه وفضائله الكبرى عن قائد رجال ومنظم ورئيس بالغ الحكمة حسن العشرة يفتن الناس بعقله وحكمته وتواضعه وزهده مع البساطة التامة

والإنسانية الرفيعة ، فتدافع الناس فى الإسلام على يديه تدافعا ، وهذا بدوره أثار غيرة وحسداً وخوفاً عند نفر من زعماء أهل المدينة ممن أحسوا أن سراج محمد المنير يضعهم فى الظل بل الظلام ، ومنهم من صارح بعداوته وكراهته وبعضهم الآخر تظاهر بالإسلام ومضى يدس لمحمد والمسلمين . .

هذا إلى أن اليهود ، وخاصة وحداتهم الثلاث الكبرى . . بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة (وكان هناك يهود غيرهم كثيرون) أحسوا خطر محمد والإسلام عليهم ، فهذا الرسول فعلاً أتى بالحق الذى يعلمونه فى كتبهم ، وهذه آيات سورة البقرة سنام القرآن . . . تتوالى مبينة لهم أن ماجاء به محمد هو الحق ولا حق غيره ، ولكنه ليس من بنى إسرائيل وليس من الأسباط بل هو عربى من أحفاد اسماعيل وهذا عندهم غير مصدق ولا مقبول ، فأنكروا الإسلام إنكاراً شديداً ، وبدت البغضاء فى وجوههم :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ من أهل الكتَابِ لَو يَرُدُّونَكُم من بَعدِ إيمانِكُم كُفَّاراً حَسَداً من عند أنفُسهم مِّن بَعد مَاتَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فَاعفُواْ وَاصفَحُواْ حَتَّىٰ يَأتِيَ الله بِأمرِهِ إنَّ الله عَلَىٰ كُل شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾ . (البقرة : الآية ١٠٩) .

وإذن فقد تغير الموقف كله . والأمة الآن فى حاجة إلى ضم صفوفها وإبراز شخصيتها لكى تستطيع مواصلة طريقها وسط العواصف الهوج التى كانت تثور حولها . .

لذلك جعل الرسول ﷺ يجتمع بأصحابه ، ويشاورهم فى الأمر ، يسمع منهم ويقول لهم ويتبادلون الرأى ، وكلما انتهوا إلى شىء يرضون عنه نادى رسول الله ﷺ علياً بن أبى طالب وأملى عليه مااتفق رأيهم عليه ، وهكذا تكون نص الكتاب أو الصحيفة أو الدستور الذى نتحدث عنه . .

وقد درس غيرنا هذه الوثيقة فى الشرق والغرب على السواء ، درسها محمد حميد الله وكتب عنها ، وكتب عنها روبرت برترام سارجانت الأستاذ بجامعة

كيمبردج ، وعقدنا معاً ندوة بحث بشأنها فى جامعة الكويت . .

وتبين لى فى أثناء ذلك أن الوثيقة مشار إليها مرة بعد أخرى فى القرآن الكريم وأشار إليها رسول الله واستند إلى بعض نصوصها فى بعض الأحكام والمناسبات ووجدت ابن سعد يشير إليها فى الطبقات ، وابن حنبل فى مسنده فى مواضع شتى والبخارى فى صحيحه والدارمى وابن ماجه وأبو داود فى سننهم ، والبلاذرى فى أنساب الأشراف وغير ذلك كثير . .

وكلما قرأت هذه الصحيفة تبين لى أننى أمام وثيقة سياسية ذات قدر عظيم ، وأن أصحابنا أهل الفقه كان ينبغى أن يولوها عناية كبرى ويعلموا أن أمامهم هنا خطا سياسياً تنظيمياً كان يمكنهم أن يتخذوه أساساً لتفكير سياسى إسلامى سليم يصحح مسار الأمة كلها إذا هم أولوه من العناية ماأولوا أحاديث أخرى تتصل بموضوعات من العبادات أو المعاملات ، والجواب أن نصها الكامل لم يصل إليهم بالطرق التى كان أهل الحديث يشترطونها لقبول الأحاديث وهى طرق الإسناد بأنواعه المختلفة . .

ولكن كيف وصل النص الكامل لهذه الوثيقة إلى محمد بن إسحاق بينما وصلت إلى غيره من أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد فى صور مختصرة ، أو مجرد مقتبسات منها أو إشارات إليها ، وهذا هو السبب فى أنهم لم يقدروها حق قدرها ولم تتكشف لهم حقائقها التى سنبينها فى هذا البحث . .

وسألت نفسى : ولكن كيف استطردوا عنها وهى أمامهم فى سيرة ابن إسحاق ، وكانت هذه السيرة فى يد كل عالم مسلم إلى القرن السابع أو الثامن الهجرى ، ثم اختفت إذ حلت محلها سيرة ابن هشام ، فلم تبق منها إلا نسخ قليلة لم نعثر على واحدة كاملة منها إلى الآن ، وبقيت لدينا منها فقرات ، ونقول فى كتب شتى ذلك أن محمداً بن إسحاق بن يسار المطلبى صاحب السيرة كان

على خلاف مع فقهاء عصره وخاصة مالك بن أنس ، فقد كان مالك اكبر شيوخ الحديث حتى كان يسمى أمير المؤمنين فى الحديث .

وكان تلاميذه يتعصبون له تعصباً شديداً ـ شأن التلاميذ مع شيوخهم فى تلك العصور ـ وعندما سمع مالك أن ابن إسحاق يقول أنا « بيطار السيرة » . . أى أنه طبيبها وأستاذها الأكبر أنكر مالك ذلك ، ومازال بابن إسحاق حتى أخرجه من المدينة ، فمضى إلى بغداد واتصل بالخلفاء وفرغ من سيرته فى بغداد واشتهر أمرها بين الناس .

وكان محمد بن إسحاق هاشمى الميول . كان يحب أهل البيت ، وكان شديد الاتصال بكبارهم وخاصة عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب والإمام جعفر الصادق ، ولهذا سمى بمحمد بن إسحاق بن يسار المطلبى . .

ولم تكن هذه الوثيقة قد كتبت مرة واحدة ، بل كتبت على أجزاء ، كانت المشاورات بين محمد وأصحابه متصلة ، كلما تطورت الأحوال وتوالت الأحداث وتشاور الرسول مع أصحابه وقرروا مايرونه ـ وأثبته على بن أبى طالب فى صحف أو ورقات واحتفظ بها فى قراب سيفه ، وكانت تلك ومازالت وسيلة حفظ الوثائق الهامة عند العرب : يضعونها فى قراب السيف أو الخنجر أو فى كيس جلد معلق فيه . .

وهذه الأوراق ورثها من أبناء على بن أبى طالب ابنه الحسن ثم حفيده الحسن بن الحسن ، ثم ابن هذا عبد الله وانتسخ الإمام جعفر الصادق لنفسه نسخة منها ، ولسنا نعرف إن كانت النسخة التى أثبتها ابن إسحاق فى سيرته ، ثم ابن هشام فى إعادة صياغته للسيرة هى نسخة عبد الله بن الحسن بن الحسن أو نسخة جعفر الصادق . .

أما أهل الحديث فلم يصل إليهم النص الكامل ، إنما وصلتهم منها صور موجزة أكبرها مانجده فى كتاب الأموال لأبى عبيد القاسم بن سلام ، ونظراً لموقف أهل الحديث عامة من ابن إسحاق فإن أحداً منهم لم ينقل عنه النص كاملا واكتفى كل منهم بما وصل إليه ، ثم إن منهجهم فى الرواية كان يعتمد أساساً على السند أو سلسلة الرواة .

ونص ابن إسحاق ليس له سند ، فهو من إملاء الرسول ﷺ إلى على بن أبى طالب ، حقاً إن علياً بن أبى طالب قرر أنه لم يكتب عن رسول الله إلا بعض القرآن « ومافى هذه الصحيفة » كما قال . إلا أن هذا لم يكف أهل الحديث المدققين المحققين ، فظلت عندهم قطعاً وإشارات لا يتكون منها نص متصل يصلح أن يكون أساساً لدراسة شاملة أو أساساً لاستخراج أحكام . وكانت خسارتنا بذلك خسارة كبرى . .